... والله ما هَذا بالعَدْل...

كان رسول الله ﷺ قد سار بجيشه قاصداً تبوك ، وحين سار رسول الله ﷺ كان أبو خيثمة مالك بن قيس غير متحمّس إلىٰ الخروج أول الأمر.

وبعد سير النبي صلوات الله عليه بأيام ، ضاق صدر أبي خيثمة ، وشعر بالنّدم علىٰ تخلّفه عن رسول الله ﷺ ، فعاد إلىٰ أهله في يومٍ شديد الحرّ ، وكان له زوجتان ، وهما في بستانه ، فوجد امرأتيه قد رشّت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له ماء، وهيّأت له فيه طعاماً.

فوقف أبو خيثمة علىٰ باب بستانه ، ونظر إلىٰ امرأتيه وما صنعتا له ، فقال لهما: رسول الله في الشمس والريح والحرّ ، وأبو خيثمة في ظلّ وماء بارد وطعام مهيّأ وامرأة حسناء في ماله مقيم؟ ما هذا بالنصفة والعدل.

ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتىٰ ألحق برسول الله ﷺ ، فهيّئا لي زاداً.

ففعلن ، ثم قدم بعيره فارتحله ، وخرج في طلب رسول الله ﷺ ، حتىٰ أدركه حين نزل تبوك.

وكان أبو خيثمة قد أدرك عمير بن وهب الجمحي في الطريق يريد الالتحاق برسول الله ﷺ ، فترافقا ، حتىٰ إذا قربا من تبوك ، قال أبو خيثمة لعمير: إن لي عليك ذنباً ، فلا عليكَ أن تتخلّف عنّي ، حتىٰ آتي رسول الله ﷺ ، ففعل عمير ، حتىٰ إذا دنا أبو خيثمة قال الناس: يا رسول الله ، هذا راكبٌ علىٰ الطريق مقبل ، فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: «كن أبا خيثمة».

فقالوا: هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أبو خيثمة راحلته ، أقبل فسلّم علىٰ

رسول الله ﷺ، فقال الرسول ﷺ: «أولىٰ لكَ يا أبا خيثمة».

فأخبر رسول الله بخبره، واعتذر إليه، فقبل رسول الله صلوات الله عليه عذره ودعا له بخير، وقد أنشد أبو خيثمة يومذاك قوله:

ولما رأيتُ الناسَ في الدّين نافقوا ... أتيتُ التي كانت أعفّ وأكرما
وبايعتُ باليمنىٰ يدي لمحمّدٍ ... فلم أكتسب إثماً ولم أغشَ مَحْرما
تركتُ خضيباً[1] في العريش وصرْمةً ... صفايا كراماً بُسرها[2] قد تحمّما[3]
وكنتُ إذا شكّ المنافق أسمحَتْ ... إلى الدّين نفسي شطره حيث يمّما[4]

أجل يا رسول الله!

ما أروع تلك الكوكبة من الصحابة الذين ربّيتهم علىٰ القرآن والسنّة، فكانوا قدوة وأسوة للأجيال من بعد فرَضِيَ الله عنهم أجمعين.

يا سيّد الرسل طبْ نفساً بطائفةٍ ... باعوا إلىٰ الله أرواحاً وأبدانا
قادوا السّفين، فما ضلّوا وما وقفوا ... وكيف لا، وقد اختاروك ربّانا

* * *

(١) أي: الزوجة التي تخضّب يديها.
(٢) أي: نوع من أنواع الرُّطَب.
(٣) أي: أخذ من الأرطاب فاسودّ.
(٤) سيرة ابن كثير: ٤/ ١٤، تاريخ الطبري: ٤/ ١٦٩٦.